﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾

قال تعالى : **﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾** [الواقعة: ١٠-١١].
من صفا صُفِّي له ، ومن كَدَّر كُدِّر عليه .
السابقون في الدنيا إلى الخيرات ، سبقوا في الآخرة إلى الجنات ، فإن السبْق هناك على قدر السبْق هنا .
قُربت قلوبهم من بساط المعرفة ، وإلى الحق في دار الدنيا ، فقال الله عنهم : **﴿ أولئك المقربون ﴾** ، النعيم الأكبر والأسنى نعيم القُرْب ، وجنات النعيم لا تساوي ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصيب .
اليوم جنان العرفان ، وغدًا جنان الرضوان .
يقول قائلهم : إنه لتمرُّ بالقلب أوقات يرقص فيها القلب طربًا ، وأقول : إن كان أهل الجنة في مثل هذا العيش؛ إنهم لفي عيش طيِّب .
لا ينفكون عن أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ، فهم أبدًا في الجنة ، ولا إخراج لهم منها ، أبدًا لهم القربى والزلفى ، لا حجاب لهم عنها .
السابقون السابقون ، إنهم هم هم وكفى ، فهو مقام لا يزيده الوصف شيئًا .
السابقون بصدْق القدم وعُلُوّ الهمم ... أولئك المقربون ... ولله ما أحلى لفظ القرآن ! فكم الفرق بين (المقربون) و (المتقربون) ... سيقت إليهم الجنة ، وزُفّت إليهم لكرامتهم على ربهم .
مَنْ وقعت عليه غبرة في طريقهم ، لم تقع عليه قترة فراقهم .
مَنْ خطا خطوة إليهم؛ وجد حظوة لديهم .
من رفع إليهم يدا؛ أجزلوا له رغدا .
من التجأ إلى سُدَّة كرمه؛ آواه في ظل نعمه .

من شكا فيهم غليلا ؛ مهَّدوا له في دار فضلهم مقيلا .

يقول شيخ الإسلام ابن القيم :

« للإنسان قوتان : قوة علمية نظرية ، وقوة عملية إرادية ، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيْه العلمية والإرادية .

واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، ومعرفة الطريق التي توصِّل إليه ، ومعرفة آفاتها ، ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها، فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها .

واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد ، والقيام بها إخلاصًا ، وصدقًا ، ونصحًا ، وإحسانًا ، ومتابعةً ، وشهودًا لمنَّته عليه ، وتقصيره هو في أداء حقه ، فهو مستحيٍ من مواجهته بتلك الخدمة ؛ لعلمه أنها دون ما يستحقُّه عليه ، ودون دون ذلك ، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته ، فهو مُضطرٌّ إلى أن يهديه الصراط المستقيم ، الذي هدى إليه أولياءه وخاصَّته ، وأن يُجنِّبه الخروج عن ذلك الصراط؛ إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية، فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور»[(١)] .

فعهْد الله الكريم ، وصراطُه المستقيم ، ونبؤه العظيم « لا يُوصل إليه أبدًا إلا من باب العلم والإرادة ، فالإرادة باب الوصول إليه ، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتْحُه عليه ، وكمال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين : « همَّة تُرقِّيه ، وعلم يُبصِّره ويهديه » ، فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من إحداهما ؛ إما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها ، أو يكون عالمًا بها ولا تنهض همَّتُه إليها ، فلا يزال في حضيض طبْعه محبوسًا ، وقلبُه

(١) الفوائد لابن القيم صـ ٢٨-٢٩ مكتبة الجامعة .

عن كماله الذي خُلق له مصدودًا منكوسًا ، قد أسام نفسه مع الأنعام راعيًا مع الهمل ، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة ، واستلان فراش العجز والكسل ، لا كمن رُفع له علمٌ فشمَّرَ إليه ، وبورك له في تفرُّدِه في طريق طلَبِه ؛ فلزمه واستقام عليه ، قد أبت غلبات شوقه إلاَّ الهجرة إلى الله ورسوله ، ومقتت نفسه الرفقاء ، إلا ابن سبيل يُرافقه في سبيله .

ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها ، وشرفُ العلم تابعًا لشرف معلومه ؛ كانت نهاية سعادة العبد - الذي لا سعادة له بدونها ، ولا حياة له إلا بها - أن تكون إرادته مُتعلِّقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت ، وعزمات هِمَّته مسافرة إلى حضرة الحي الذي لا يموت ، ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى والحظ الأوفى ؛ إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه ، الذي بعثه لذلك داعيًا ، وأقامه على هذا الطريق هاديًا ، وجعله واسطة بينه وبين الأنام ، وداعيًا لهم بإذنه إلى دار السلام ، وأبى أن يفتح لأحد منهم إلا على يديه ، أو يقبل من أحد منهم سعيًا إلا أن يكون مبتدئًا منه ومنتهيًا إليه ، فالطرق كلها إلا طريقه ﷺ مسدودة ، والقلوب بأسرها إلا قلوب أتباعه المنقادة إليه عن اللَّه محبوسة مصدودة ، فحُقَّ على مَنْ كان في سعادة نفسه ساعيًا ، وكان قلبُه حيًّا عن اللَّه واعيًا - أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله ، وأن يُصيِّرهما أخبيته التي إليها مفزعه في حياته وطاء له »[(1)].

قلبي يُحدِّثني ألَّا يليق به ... رضًا بجهل ذليل اللُّب يرضيه
قد ثار ثائر نفسٍ عزَّ مطلبُها ... وطارَ طائر لُبٍّ في مراقيه
كالنسر لا حاجبَ للشمس يحرقُهُ ... ولا الصواعَقُ والأرواحُ تُثنيه
ليس الطموحُ إلى «العلياء» من سَفَهٍ ... لا السُّموُّ إلى حقٍّ بمكروهِ
إن لم أنلْ منه ما أروي الغليلَ به ... قد يحمدُ المرءُ ماءً ليس يرويه

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم ص٤٦ -٤٧ دار الكتب العلمية .

والقانعون بما قد دان عَيْشُهمُ موت فإن هدوءَ القلب يُرديهِ
ياقلبُ يهنيك نبضٌ كُلُّهُ حَرَقٌ إلى الغرائب مما عزَّ ساميهِ[١]

أخي، ائت الديار البكر، وارتَد كل يوم منزل فضْلٍ لم يُعرف لأحد في عصرك، وائت في التنافس بجديد، كأنك طليعة جيش، حتى يصدق فيك قول القائل:

عجبًا بأنك سالم من وحشة في غاية مازلتَ فيها مُفردا

يقول ابن القيم :

« سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : في بعضِ الآثار الآلهية يقول الله تعالى : « إني لا أنظر إلى كلام الحكيم ، وإنما أنظر إلى هِمَّته » . قال : والعامة تقول : قيمة كل امرىء ما يُحسن . والخاصة تقول : قيمة كل امرىء ما يطلب ؛ يريد أن قيمة الرجل هِمَّتُه ومطلبُه »[٢] .

فهنالك هِمَّة تدور حول الأنتان والحُشِّ: ذكر الله حسب صاحبها وموته، وذكر الناس فاكهته وقوته ، يُنادى إلى الله عز وجل والدار الآخرة من مكان قريب فلا يُجيب النداء ، الدنيا تصمُّه عما سوى الباطل وتُعميه[٣] .

فاستأنس بغيبته ما أمكنك ، فإنه لا يُوحشك إلا حضورُه عندك ، فإذا ابتُليت به فأعطِهِ ظاهرك ، وتَرَحَّل عنه بقلبك ، وفارقْه بسرِّك ، ولا تشغلْ نفسك إلا بما هو أولى بك .

واعلم أن الحسرة كل الحسرة : الاشتغالُ بمن لا يجرُّ عليك الاشتغالُ به إلا فوتَ نصيبك وحظِّك من الله عز وجل ، وانقطاعك عنه ، وضياعَ وقتك عليك ، وضعْفَ عزيمتك وتفرُّقَ همِّك ، وإياك وقاطعَ الطريق ولو كان من كان، فانجُ بقلبك، وضنَّ بيومك وليلتك، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول

---

(١) عبد الرحمن شكري .
(٢) مدارج السالكين ٣/٣ .
(٣) إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية .

المنزلة فتؤخذ[١]، ولا تُدرك أحبابًا أنى لك بلحاقهم .

وهِمَّةٌ أخرى : ارتبطت بمن فوق العرش جل وعلا إرادةً وطلبًا ، وشوقًا ومحبةً ، وإخباتًا وإنابةً ، لا مُستراحَ لها إلا تحت شجرة طوبى ، ولا قرارَ لها إلا في يوم المزيد ، كلما طال عليها الطريق تلمَّحت المقصد ، وكلما أمرّت الحياة حلى تذكَّرت ﴿ **هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾ .

كان الأعرابي يأتي إلى رسول الله يسأله حفنةً من شعير قائلًا: يا محمد، أعطني من مال الله ، فإنه ليس مالك ولا مال أبيك .. ما يطلب إلَّا ما يذهب إلَّا إلى الحش .. هذه هِمَّةٌ .. وهِمَّة ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه هِمَّة فوق الشمس .

عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل»، فقلتُ: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أو غير ذلك؟» قلتُ: هو ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»[٢].

حدِّثْ عن القوم فالألفاظ ساجدة خلف المحاريب والأوزان تبتهلُ

قال شيخ الإسلام الهروي الأنصاري :

«الهِمَّة: ما يملك الانبعاث للمقصود صِرفًا، لا يتمالك صاحبها ولا يلتفت عنها».

قال ابن قيم الجوزية :

« قوله : « يملك الانبعاث للمقصود » ؛ أي يستولي عليه كاستيلاء المالك على المملوك .

والمراد : أن همة العبد إذا تعلَّقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محْضًا ، فتلك هي الهمة العالية ، التي « لا يتمالك صاحبها » ؛ أي لا يقدر على المُهلة ، ولا يتمالك صبره ؛ لغلبة سلطانه عليه ، وشدة إلزامها إياه بطلب

---

(١) الوابل الصيب لابن قيم الجوزية .

(٢) رواه مسلم في صحيحه . كتاب الصلاة باب فضل السجود والحث عليه .

المقصود، «ولا يلتفت عنها» إلى ما سوى أحكامها. وصاحب هذه الهمة سريعٌ وصولُهُ وظَفَرُهُ بمطلوبه، ما لم تعقْه العوائق، وتقطعْه العلائق، والله أعلم»[1].

قال الهروي : وهي على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : هِمَّة تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني ، وتحمله على الرغبة في الباقي ، وتُصفِّيه من كَدَر التواني .

يقول ابن القيم :

الفاني: الدنيا وما عليها، أي يزهد القلب فيها وفي أهلها، وسمَّى الرغبة فيها «وحشة» ؛ لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها، وقلوب الزاهدين فيها.

أما الراغبون فيها : فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم ، إذ فاتها ما خُلقت له ، فهي في وحشة لفواته .

وأما الزاهدون فيها: فإنهم يرونها موحشة لهم؛ لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم، ولا شيء أوحش عند القلب مما يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه.

وأيضًا : فالزاهدون فيها : إنما ينظرون إليها بالبصائر ، والراغبون ينظرون إليها بالأبصار ، فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب ، كما قيل :

وإذا أفاق القلب واندمَلَ الهوى   رأت القلوبُ ولم تَرَ الأبصارُ

وكذلك هذه الهمة تحمله على الرغبة في الباقي لذاته ، وهو الحق سبحانه ، والباقي بإبقائه وهو الدار الآخرة .

« وتصفِّيه من كدر التواني » ؛ أي تُخلِّصه وتُمَحِّصه من أوساخ الفتور والتواني ، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط ، والله أعلم .

قال :

والدرجة الثانية : هِمَّةٌ تُورث أَنَفَةً من المبالاة بالعلل ، والنزول على العمل ، والثقة بالأمل .

---

(١) مدارج السالكين ٣/٣ - ٤ .

قال ابن القيم : « العلل » هاهنا هي علل الأعمال من رؤيتها ، أو رؤية ثمرتها وإرادتها ونحو ذلك ، فإنها عندهم علل .

فصاحب هذه الهمة يأنف على هِمَّته وقلبه من أن يُبالي بالعلل ، فإن همته فوق ذلك ، فمبالاته بها ، وفكرته فيها ، نزول من الهمة ، وعدم هذه المبالاة ، إما لأن العلل لم تحصل له ؛ لأن عُلُوَّ هِمَّته حال بينه وبينها ، فلا يُبالي بما لم يحصل له ، وإما لأن هِمَّته وسعَتْ مطلوبه ، وعُلُوُّه يأتي على تلك العلل ويستأصلها ، فإنه إذا علَّق هِمَّته بما هو أعلى منها ؛ تضمَّنتها الهِمَّة العالية ، فاندرج حكمُها في حكم الهمة العالية . وهذا موضع غريب عزيز جدًا ، وما أدري أقصده الشيخ أو لا ؟

وأما أنَفَته من النزول على العمل : فكلام يحتاج إلى تقييد وتبيين ، وهو أن العالي الهمة مطلبُه فوق مطلب العُمَّال والعُبَّاد ، وأعلى منه ، فهو يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي إلى مجرد العمل والعبادة ، دون السفر بالقلب إلى الله ، ليحصل له ويفوز به ، فإنه طالبٌ لربه تعالى طلبًا تامًّا بكل معنى واعتبار في عمله، وعبادته ومناجاته، ونومه ويقظته، وحركته وسكونه، وعُزْلته وخُلطته، وسائر أحواله، فقد انصبغ قلبه بالتوجُّه إلى الله تعالى أيّما صبغة.

وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة ، فهم لا يقنعون بمجرد رسوم الأعمال ، ولا بالاقتصار على الطلب حال العلم فقط .

قال :

الدرجة الثالثة: هِمَّةٌ تتصاعد عن الأحوال والمعاملات، وتزري بالأعواض والدرجات ، وتنحو عن النعوت نحو الذات .

أي هذه الهمة أعلى من أن يتعلَّق صاحبها بالأحوال التي هي آثار الأعمال والواردات ، أو يتعلَّق بالمعاملات ، وليس المراد تعطيلها ، بل القيام بها مع عدم الالتفات إليها والتعلُّق بها .

ووجه صعود هذه الهمة عن هذا : ما ذكره من قوله : « وتُزري

بالأعواض والدرجات، وتنحو عن النعوت نحو الذات»؛ أي صاحبها لا يقف عند عِوَضٍ ولا درجة ، فإن ذلك نزول من هِمَّته ، ومطلبُه أعلى من ذلك ، فإن صاحب هذه الهمة قد قصر هِمَّته على المطلب الأعلى ، الذي لا شيء أعلى منه ، والأعواض والدرجات دونه ، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عِوَضٍ ودرجة عالية .

وأما نحوها « نحو الذات » فيريد به : أن صاحبها لا يقتصر على شهود الأفعال والأسماء والصفات ؛ بل الذات الجامعة لمتفرقات الأسماء والصفات والأفعال ، والله أعلم[1] .

أخي ، إنما خُلقنا لنحيا مع الخالق ، في دار غرسَ غراسها الرحمنُ بيده ، ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ ، فما اشترى إلا سلعةً هذَّبها الإيمان ، فخرجت من طبعها إلى بلد ؛ سُكَّانُه التائبون العابدون .

سلِّم المبيع قبل أن يتلف في يدك ، فلا يقبله المشتري ، قد علم المشتري بعيب السلعة قبل أن يشتريها فسلمها ، ولك الأمان من الرد .

قدْرُ السلعة يُعرف بقدر مشتريها ، والثمن المبذول فيها ، والمنادي عليها ، فإذا كان المشتري عظيمًا ،والثمن خطيرًا، والمنادي جليلًا؛ كانت السلعة نفيسةً.

يابائعًا نفسه بيع الهوان لو اسـ ... ـترجعتَ ذا البيع قبل الفوت لم تخبِ
وبائعًا طيبَ عيشٍ ما له خطرٌ ... بطيفِ عيشٍ من الآلام منتهبِ
غبنت والله غبنًا فاحشًا ولدى ... يوم التغابن تلقى غاية الحَرَبِ[2]
وواردًا صفْو عيشٍ ما له كدرٌ ... أمامك الوردُ حقًّا ليس بالكذبِ
وحاطبَ الليل في الظلماء منتصبًا ... لكل داهية تدني من العطبِ
ترجو الشفاءَ بأحداق بها مرضٌ ... فهل سمعتَ ببُرءٍ جاء من عطبِ

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٣ / ٤ - ٦ .
(٢) الحرب : الهلاك .

ومُفنيًا نفْسَهُ في إثر أقبحهم ... وصفًا للطخِ جمالٍ فيه مُستلبِ
وواهبًا نفْسَهُ في مثل ذا سفهًا ... لو كنتَ تعرف قدر النفس لم تهبِ
شاب الصِّبا والتصابي بعد لم يشب ... وضاع وقتُك بين اللهو واللعبِ
وشمسُ عمرك قد حان الغروبُ لها ... والفيء في الأفق الشرقي لم يغبِ
وفاز بالوصل مَنْ قد جدَّ وانقشعت ... عن أُفْقِهِ ظلماتُ الليل والسُّحبِ
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ... ورسْلُ ربك قد وافتك في الطلب
ما في الديار وقد سارت ركائبُ مَنْ ... تهواه للصبِّ من شكرٍ ومن أَرَبِ
ما في الخيام أخو وجْدٍ يُريحك إنْ ... بثثتَه بعضَ شأنِ الحبِ فاغتربِ
وسرْ في غمرات الليل مهتديًا ... بنفحة الطيب لا بالعود والحطبِ
وعادِ كل أخي جُبنٍ ومَعجزة ... وحارب النفسَ لا تلقيك في الحربِ
وخذْ لنفسك نورًا تستضيء به ... يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتَبِ(١)

يا مختار القدر ... يامن هو من أرباب الخبرة ، اعرف قدْر قدرِك ، إنما خلقت الأكوان كلها لك ...

ياوعاء البدائع ... يامن غُذِّي بلبان البر ، وقُلِّب بأيدي الأيادي، يازرعًا تهمي عليه سُحُبُ الألطاف ، كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة ، وصورة وأنت المعنى، وصَدَفٌ وأنت الدُّرُّ، مخ وأنت الزبد، مكتوب اختيار مولاك لك، واضح الخط، غير أن استخراجك ضعيف، ويحك.. لو عرفت قدْر نفسك ما أهنتها.. ياجوهرة بمضيعة، كم من ملك في السموات يُسبِّح ما لهم رتبة ﴿**تتجافى**﴾، لا يعرف طعم طعام ، وما لهم مقام « ولخلوف » ، سبحان من اختارك على الكل ، وجادل عنك الملائكة قبل وجودك ﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ .

صوّب إلى الرحيل ﴿**ياليت قومي يعلمون**﴾،تلمَّح القوم الوجود، ففهموا المقصود، فأجمعوا الرحيل قبل الرحيل، وشمَّروا للسير في سواء السبيل.

---

(١) الفوائد ١٠١ - ١٠٢ .

أخي ، إن هَمَمْتَ فبادرْ ، وإن عزمتَ فثابرْ ، واعلم أنه لا يُدرك المفاخر ، من رضي بالصف الآخر .

بليت الهمم العالية بعشق الفضائل، شجرُ المكاره يُثمر المكارم، متى لاحت الفريسة قذفت الغابة السبع، إذا استقام للجواد الشوط، لم يحوج راكبه إلى السوط.

إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة، ثم ردفه قمر العزيمة؛ أشرقت الأرض بنور ربها.

ياطالبًا للدَّعَة أخطأتَ الطريق ، علة الراحة التعب ، إن لم تكن أسدًا في العزم ولا غزالًا في السبق ؛ فلا تتثعلب .

شَمِّر عن سوق الدأب ، في سوق الأدب ، أين عزائم الرجال ؟ أين صرائم الأبطال ؟ تدَّعي وتتوانى ، هذا محال .

أشتاقكم ويحولُ العزمُ دونكمُ   فأدّعي بُعْدَكم عني وأعتذرُ
وأشتكي خطرًا بيني وبينكمُ   وآيةُ الشوقِ أن يستصغرَ الخطرُ

أخي ، من احتشم ركوب الأهوال بقي عن إدراك الآمال. الخواصُّ في كل وقت يقلُّ عددُهم، ولكن يجلُّ قدْرُهم، حتى إن ماتوا فهم أحياء، فكم من أناس موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأناس أحياء تموت القلوب برؤيتهم.

ولو أنّ فوقي تربةً ودعوتني   لأجبتُ صوتك والعظام رفاتُ

يقول ابن القيم :

وتفنى عظامُ الصبِّ بعد مماته   وأشواقُهُ وقْفٌ عليه مُحرَّمُ

وعلى الطرف الآخر :

يابؤس من يموت وتبقى ذنوبه من بعده .

من عرف قدْرَ مطلوبه سهُل عليه بذل مجهوده .

إذا شام الفتى برقَ المعاني   فأهونُ فائتٍ طِيبُ الرقادِ

لله دَرُّ القائل :

إن لم تكن للحق أنت فمن يكون   والناس في محراب لذات الدنايا عاكفون

قال العلّامة ابن رجب الحنبلي في كتابه لطائف المعارف :

« لما سمع القوم قول اللَّه عز وجل: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ ، وقوله : ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ ؛ فهموا أن المراد من ذلك أن يجتهد كل واحدٍ منهم أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة ، والمُسارعَ إلى بلوغ هذه الدرجة العالية ، فكان أحدهم إذا رأى مَنْ يعمل عمَّلا يعجز عنه؛ خشي أن يكون صاحب ذلك العمل هو السابق له ، فيحزن لفوات سبْقه ، فكان تنافُسُهم في درجات الآخرة واستباقهم إليها ، ثم جاء من بعدهم قومٌ ، فعكسوا الأمر ، فصار تنافُسُهم في الدنيا الدنيئة وحظوظها الفانية » .

قال الحسن : إذا رأيتَ الرجل ينافسك في الدنيا فنافسْه في الآخرة .

وقال رحمه اللَّه: من نافسك في دينك فنافسْه ، ومَنْ نافسك في دنياك فألقها في نحره .

وقال وهيب بن الورد: إن استطعتَ ألا يسبقك إلى الله أحدٌ فافعل .

وقال بعض السلف : لو أن رجًلا سمع برجل أطوع لله منه ، فانصدع قلبه فمات ؛ لم يكن ذلك بعجب .

وقال أحدهم: لو أن رجًلا سمع برجل أطوع منه لله؛ كان ينبغي أن يُحزنه ذلك .

قال عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه: أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نتصدَّق ، ووافق ذلك مني مالًا ، فقلتُ: اليوم أسبقُ أبا بكر إن سبقته . قال : فجئتُ بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أبقيتَ ؟ » ، فقلتُ : مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال: « يا أبا بكر ، ما أبقيت لأهلك؟ » قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله . قلتُ : لا أسبقه إلى شيء أبدًا[1].

---

(١) صحيح : رواه أبو داود والترمذي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

لله دَرُّكَ من صِدِّيق !!

وهذا الذي يسبق العلماء برتوة ؛ معاذ بن جبل ، يقول : أنام أول الليل ، وأقوم آخره ، فأحتسب نومتي ، وأحتسب قومتي[(١)] .

وهذا عبد الله بن مسعود ، يقول عنه شقيق بن عبد الله : مرض عبد الله ابن مسعود فعُدناه ، فجعل يبكي ، فعُوتب ، فقال : إني لا أبكي لأجل المرض ، لأني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « المرض كفَّارة » ، وإنما أبكي أنه أصابني على حال فترة ، ولم يُصبني في حال اجتهاد ، إنه يُكتب للعبد من الأجر إذا مرض ما كان يُكتب له قبل أن يمرض فمنعه منه المرض[(٢)] .

وهذا عمر رضي اللَّه عنه يقول: إني لأُكره نفسي على الجماع؛ رجاءَ أن يُخرج اللَّه نسمة تذكره .

وهذا الفضيل بن عياض يقول: أدركت أقوامًا يستحيون من اللَّه في سواد الليل من طول الهجعة ، إنما هو على الجنب ، فإذا تحرَّك قال: ليس هذا لك ، قومي خذي حظّك من الآخرة .

وكان ابن سيرين يدخل السوق نصف النهار ، فيُكبِّر اللَّهَ ويُسبِّحه ويذكره ، ويقول : إنها ساعةُ غفلة للناس .

وهذا الأسود بن الأسود لا يأكل الخبز إلا بنية ، كان يأكل فإذا ثقُل عن الصلاة خفَّف بها ، فإذا خفَّف ضعُف فأكل ليقوى ، فكان أكلُه له وتركُه لها . وخف أي نشط وتلذذ بها .

وهذا محمد بن المنكدر يقول: بتّ أغمز رِجْلَ أمي ، وبات أخي عمر يُصلِّي ، وما أودُّ أن ليلتي بليلته .

وقال رجل لمالك بن دينار: رأيتُ فيما يرى النائم مناديًا ينادي :

---

(١) تاريخ بغداد ٢/٣٧٥ .

(٢) جامع الأصول لابن الأثير ٩/٨٥٦- الأولى دار الفكر .

الرحيل الرحيل ، فما رأيت أحدًا يرتحل إلا محمد بن واسع ، فصاح مالك وغشي عليه .. ﴿ **والسابقون السابقون أولئك المقربون** ﴾ .

قيل لبعض المجتهدين في الطاعات: لِمَ تُعذّب هذا الجسد ؟ قال: كرامَتهُ أريد .

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت في مرادها الأجسام

صاحب الهمة العلية ، والنفس الشريفة التوّاقة ، لا يرضى بالأشياء الدنيئة الفانية وإنما هِمَّته المسابقة إلى الدرجات الباقية .

قال عمر بن عبد العزيز : إن لي نفسًا توّاقة ، ما نالت شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه ، وإنها لما نالت هذه المنزلة – يعني الخلافة – وليس في الدنيا منزلة أعلى منها ، تاقت إلى ما هو أعلى منها – يعني الآخرة .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم .

وجاءت مولاة لعمر بن عبد العزيز ، فقصَّت أنها رأت في المنام كأن الصراط قد نُصب على جهنم ، وهي تزفر على أهلها ، وذكرت أنها رأت رجالًا مرُّوا على الصراط فأخذتهم النار ، قالت : ورأيتُك يا أمير المؤمنين وقد جيء بك ، فوقع مغشيًّا عليه ، وبقي زمانًا يضطرب ، وهي تصيح في أذنه : رأيتك والله قد نجوت(١) .

أخي، لما علم الصالحون قِصَرَ العمر، وحثَّهم حادي ﴿**وسارعوا**﴾؛ طووْا مراحل الليل مع النهار انتهابًا للأوقات . **أصغِ سمعك** لنداء ربك ﴿ **ففروا إلى الله**﴾، وبادرْ طيَّ صحيفتك، واحسرْ عن رأسك قناع الغافلين، وانتبهْ من رقدة الموتى، وشمِّرْ للسباق غدًا، فإن الدنيا ميدان المتسابقين، واعلم أنما خُلقنا لنحيا مع الخالق، ونافسْ في الفردوس، فإن الرحمن جلَّ جلاله قد غرس غراسه بيده.

ياإخوتاه ، سيروا إلى ربكم سيرًا جميلًا .

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي صـ ٢٦٠ ، ٢٦١ طبع دار الفتح .

أيا صاحِ هذا الركبُ قد سار مسرعًا ونحن قعود ما الذي أنت صانعُ
أترضى بأن تبقى المُخلَّفَ بعدهم صريعَ الأماني والغرام ينــازعُ
على نفسه فليبكِ مَنْ كان باكيًا أيذهب وقتٌ وهو باللهو ضائعُ

كن بقلبك بل بكلِّك مع القوم الذين قال عنهم شيخنا ابن القيم « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » :

« رفع لهم علم الجنة فشمَّروا إليه ، ووضح لهم صراطها المستقيم فاستقاموا عليه ، ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر في أبد لا يزول ولا ينفد ، بصبابة عيش إنما هو كأضغاث أحلام ، أو كطيف زار في المنام ، مشوب بالنغص ، ممزوج بالغصص ، إنْ أضحك قليلًا أبكى كثيرًا ، وإنْ سرَّ يومًا أحزن شهورًا ، آلامه تزيد على لذاته ، وأحزانه أضعاف أضعاف مسرّاته ، أوله مخاوف ، وآخره متالف .

فيا عجبًا من سفيه في صورة حليم ، ومعتوه في مسلاخ عاقل ، آثر الحظ الفاني الخسيس على الحظ الباقي النفيس ، وباع جنة عرضُها الأرض والسموات ، بسجن ضيِّق بين أرباب العاهات والبليَّات ، ومساكن طيبةً في جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار ، بأعطان ضيِّقة آخرها الخراب والبوار ، وأبكارًا عُرُبًا أترابًا كأنهن الياقوت والمرجان ، بقذِراتٍ دَنِساتٍ سيئاتِ الأخلاق مُسافحات أو متخذات أخدان ، وحورًا مقصوراتٍ في الخيام ، بخبيثات مسيّبات بين الأنام ، وأنهارًا من خمر لذة للشاربين ، بشراب بخس مُذهبٍ للعقل ، مُفسدٍ للدنيا والدين ، ولذةَ النظرِ إلى وجه العزيز الرحيم ، بالتمتُّع برؤية الوجه القبيح الدميم ، وسماعَ الخطاب من الرحمن ، بسماع المعازف والغناء والألحان ، والجلوسَ على منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد في يوم المزيد ، بالجلوس في الطرقات مع كل شيطان مريد .

فلو توهَّم المتخلف عن هذه الرفقة ما أعدَّ الله لهم من الإنعام ، وادَّخر

لهم من الفضل والإكرام ، وما أخفى لهم من قُرَّة أعين لم يقع على مثلها بصرٌ ، ولا سمعتْهُ أُذُنٌ ، ولا خَطَرَ على قلب بشر - لعلم أي بضاعة أضاع ، وأنه لا خير له في حياته ، وهو معدود من سقط المتاع .

فياعجبًا لها ، كيف نام طالبها وكيف لم يسمح بمهرها خاطبُها ، وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها ، وكيف قَرَّ للمشتاق القرارُ دون معانقة أبكارها ، وكيف قرّت دونها أعينُ المشتاقين ، وكيف صبرت عنها أنفسُ الموقنين ، وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين ، وبأي شيء تعوّضت عنها نفوس المعرضين ؟!! »[(١)] .

لقد حرّك الداعي إلى الله وإلى دار السلام: النفوسَ الأبية ، والهممَ العاليةَ ، وأسمع منادي الإيمان مَنْ كانت له أُذُنٌ واعية ، وأسمع الله مَنْ كان حيًّا فهزّه السماع إلى منازل الأبرار، وحدا به في طريق سيره، فما حطّت به رحاله إلا بدار القرار.

فحيَّهلا إن كنتَ ذا هِمَّة فقد ... حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا
وقلْ لمنادي حبِّهم ورضاهمُ ... إذا ما دعا لبَّيْك ألفًا كواملا
ولا تنظرِ الأطلالَ من دونهم فإنْ ... نظرتَ إلى الأطلال عُدْنَ حوائلا
فلا تنتظرْ بالسير رفقةَ قاعدٍ ... ودعْهُ فإنَّ الشوقَ يكفيك حاملا
وخذْ منهم زادًا إليهم وسرْ على ... طريق الهدى والحب تصبح واصلا
وأحي بذكراهم سراك إذا دنت ... ركابُك فالذكرى تُعيدك عاملا
وإما تخافنَّ الكلال فقل لها ... أمامك وردُ الوصل فابغِ المناهلا
وخذْ قبسًا من نورهم ثم سرْ به ... فنورُهم يهديك ليس المشاعلا[(٢)]

لا تضعْ عصا السير عن عاتقك حتى تبدوَ لك أعلامُ دارِك وخيامها ،

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن قيم الجوزية صـ ٦ - ٧ .

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية .

وواصلِ السيرَ ليلَ نهارَ ، فعند الصباحِ يحمدُ القومُ السرى .

كيف لا يتسارع في يومه وغده ، سير مَنْ قطع به أمسُهُ مرحلةً نحو غايته ، ومن أيقن أنه يتبع رسولًا من أولي العزم ﷺ ، فكيف لا يستمد منه عزمه[١] .

النية الصالحة ، والهِمَّة العليَّة : نفسٌ تضيء ، وهمّة تتوقَّد .

وبَعْدُ ، ياداعية الإسلام :

إن مَنْ جَدّ وجد ، وليس من سهر كمن رقد .

هذا دبيب الليالي يُسارق نفسك ساعاتها ، وإنَّ سِلَعَ المعالي غاليات الثمن ، وإنما ثمنُها اتِّباع مدارس السلف ، فانظر لنفسك واغتنم وقتك ، فإن الثواء قليل ، والرحيل قريب ، والطريق مخوف ، والاغترار غالب ، والخطر عظيم ، والناقد بصير[٢] .

لو قال لك البطّالون من الكسالى: «لو تفرَّغت لنا»؛ فاقرعْ أسماعهم بصوت عمر بن عبد العزيز : وأين الفراغ ؟ ذهب الفراغ ، فلا فراغ إلَّا عند الله ، لا مُستراح للعابد إلا تحت شجرة طوبى .

كن ممن قال فيهم البنا رحمه الله :

قد سهرت عيونهم والناس نيام، وشُغلت نفوسهم والخليُّون هُجَّع[٣] .

من هشيم فيك أذكِ اللهبا   من تراب فيك أطلع شهبا
من لهيب القلب عِلمُ الكامِل   مقصْد الإسلام تركُ الآفل
صدَّ إبراهيم عما يأفل   فحوته كالجنان الشعل[٤]

---

(١) الرقائق صـ ٤١ .

(٢) الرقائق صـ ١٣٧ .

(٣) إلى أي شيء ندعو الناس . للبنا ، المجموعة صـ ٢٩١ .

(٤) الأسرار والرموز .

قيل لبعض العباد : ارفقِ بنفسك . قال : الرفقَ أطلبُ ، أو : من الرفق أتيت[١] .

لما عرف الصالحون قدْرَ الحياة؛ أماتوا فيها الهوى فعاشوا، انتهبوا بأكُفِّ الجدِّ، ما قد نثرته أيدي البطَّالين، ثم تخايلوا القيامة، فاحتقروا الأعمال، فماتت قلوبهم بالمخافة، فاشتاقت إليهم الجوامد، فالجذعُ يحنُّ إلى الرسول ﷺ، و « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : علي وعمَّار وسلمان »[٢] ، أنفوا من مزاحمة الخلق في أسواق الهوى ، وقوي شوقهم فلم يحتملوا حصْرَ الديار ، فخرجوا إلى فضاء العز في صحراء التقوى ، وضربوا مخيم الجدِّ في ساحة المجد .

ليكن نشيدك : لا لا يا قيود الأرض .
أأقنع بروضة على مزبلة والملك يدعوني إلى فردوسه الأعلى ؟!
أأرضى بخرابات البلى عن الفردوس الأعلى ، يالها صفقة غبن ؟!
أأقنع بخسائس الحشائش والرياض مُعشبةٌ بين يديَّ ؟!
لا يحصل خطير إلا بخطر ، فالدُّرُّ في عقر اليم .
مَنْ لم تبكِ الدنيا عليه ، لم تضحك الآخرة إليه .

لو قُرب الدُّرُّ على جلابه ... ما لججّ الغائصُ في طِلَابهِ
ولو أقام لزما أصدافه ... لم تكن التيجانُ في حسابهِ
ما لؤلؤُ البحرِ ولا مرجانُه ... إلا وراءَ الهولِ من عُبابهِ
من يعشقِ العليا يلق عندها ... ما لقي المُحبُّ من أحبابهِ[٣]

---

(١) اللطف في الوعظ لابن الجوزي صـ ١٥ .

(٢) حَسَنٌ: رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أنس، وحسَّنه الترمذي والألباني في صحيح الجامع رقم (١٥٩٤)، لكنه قال في المشكاة حديث (٦٢٢٥): وإسناده ضعيف، وإنْ حسَّنه الترمذي، فإنَّ فيه عنعنة البصري، وفيه أبو ربيعة الإيادي.

(٣) اللطف في الوعظ لابن الجوزي صـ ٥١١ .

وقتُ العارفِ جَدٌّ كُلُّه ؛ لعلمه بشرف الزمان ، لا وجه للراحة ، لما عاينت أبصار البصائر يوسف العواقب ؛ قطعت أيدي الهوى بسكين الشوق ، فإذا حان حين الحين؛ فرح سائر الليل بقطع المنزل، وصاحت ألسنة الجد بالعاذلين ﴿ **فذلكن الذي لُمْتُنَّني فيه** ﴾ .

قلوب أبتْ أن تعرف الصبر عنه « ما بأحشائهم عشقت فأسلو أثمان المعالي غالية ، فكيف يستامها مفلس ؟ » .

وكيف يُنال المجدُ والجسمُ وادعٌ ... وكيف يُحازُ الحمدُ والوفرُ وافرُ

كلما تعاظمت الهِمَمُ ، تصاغرت الجُثَثُ .

ولستَ ترى الأجسامَ وهي ضئيلةٌ ... نواحلَ إلا والنفوسُ كبارُ[1]

العوامُّ يحملون المشاقَّ بنفوسهم وجسومهم، والخواصُّ بقلوبهم وهمومهم، وقالوا : « والقلب يحمل ما لا يحملُ البدن » ، وقالوا :

وإنْ تروني أعاديها فلا عجبٌ ... على النفوس جنايات من الهممِ

عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود، أنه كان رقيق الساقين ، فجعلت الريح تُلقيه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله ﷺ : « مِمَّ تضحكون ؟ » . قالوا : يانبي الله ، مِن رِقّة ساقَيْه . قال : « والذي نفسي بيده ، لهُما أثقلُ في الميزان من أُحدٍ » . قال ابن كثير: تفرَّد به أحمد ، وإسناده جيِّد قوي[2] .

مفاوز الدنيا تُقطعُ بالأجسام ، ومفاوز الآخرة تُقطع بالهِمَم والقلوب ، والتذلُّل لعلّام الغيوب ، وأبواب الملوك لا تقرع بالأظافير ، بل بوجيب القلوب .

عالي الهمة لسان حاله :

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهم ... جعلتُ اشتغالي فيك يا منتهى شُغلي

لسان حاله يقول :

---

(١) اللطف في الوعظ صـ ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢/٢٩ .

قلبُهُ تحت سماءٍ لا يقرّْ هو فوق الزهرِ ما إنْ يستقرّْ
طائر ينقرُ نجمَ الحُبُكْ طائرًا فيما وراء الفلك[١]

«الكيِّسُ يقطعُ من المسافة بصحة العزيمة، وعُلُوِّ الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية مع العمل القليل ؛ أضعافَ أضعافَ ما يقطعه الفارغ من ذلك ، مع التعب الكثير والسفر الشاقّ ، فإن العزيمة والمحبة تُذهِبُ المشقةَ ، وتُطيِّب السيرَ ، والتقدم والسبق إلى الله ، إنما هو بالهِمَمِ وصِدْقِ الرغبة والعزيمة ، فيتقدم صاحب الهمة - مع سكونه - صاحب العمل الكثير بمراحل[٢] .

مَنْ لي بمثل سيرك المُدلَّل تمشي رويدًا وتجي في الأوّل

أخي ، استجلب نور القلب بدوام الجد ، إنه استعلاء ، ثمنُهُ التعبُ ، ليكن شعارك الصبر ، وراحتك التعب .

إن الداعية المسلم لايملك نفسه حتى يسوغ له أن يمنح نفسه إجازة ، وإنما هو « وقفٌ لله تعالى » .

اعلم يا أخي « أن الراحة للرجال غفلة » كما يقول الفاروق رضي الله عنه ، وأتعبُ الناسِ من جلَّت مطالبه .

قال شعبة : لا تقعدوا فراغًا ، فإن الموت يطلبكم .

سأل سائل ابن الجوزي : أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي ؟ فقال له : عند نفسك من الغفلة ما يكفيها .

يقول ابن القيم: لابد من سِنَةِ الغفلة ورقاد الغفلة، ولكن كن خفيف النوم.

وانتبه من رقدة الغفـ ـلة فالعمر قليـلْ
واطّرح سوف وحتى فهما داء دخيـلْ

---

(١) الأسرار والرموز لإقبال .

(٢) الفوائد صـ ١٤٠ .

فاخلع الراحة ياأخي ، وليكن شعارك قولَ مُعلِّمِ الخير أحمد بن حنبل لابنه : يا بُنَيَّ ، لقد أعطيتُ المجهود من نفسي .

رحمك الله يا إمام ... نفسٌ لهوها التعب .

استمع إليه حين يُسأل : متى يجد العبد طعم الراحة ؟ فيقول : عند أول قدم تضعها في الجنة .

الطالب الصادق كلما ناله همٌّ أو حزن جعله في أفراح الآخرة و «من لمح فجر الأجر هان عليه ظلام التكليف » ، كما يقول ابن الجوزي ، ولعمر الله ما هو بظلام ، ولكنها لغة اضطر إليها ؛ ليعقل مرادَهُ الراقدون[١] .

سأل رجل بلالًا مولى أبي بكر رضي الله عنه ، فقال له : مَنْ سَبَقَ ؟ قال : سبق المقرَّبون ، قال : إنما أسألك عن الخيل ؟ قال : وأنا أجيبك عن الخير[٢] .

أخي ، هل أنت عالي الهمة .. أم تشتاق أن تكون من عُلاة الهمة .. إذن فتعالَ ، واعرفْ صفة قلوبهم ، وحاكِهم .

فقلبُ عالي الهمة : قلبٌ لا يعرف القيود والقضبان .. لا تأسره الأرض كلها وما عليها .

وقلبُ عالي الهمة : لا يُصاد بالطُّعم ، فهو مُتطلِّعٌ يَقِظٌ ، لا يعرف الغفلة ، ولا يحتال عليه كاذبٌ ، ولا يصيده شيطانٌ .

وقلبُ عالي الهمة : دائمُ الثأر من الشيطان .

يقول ابن القيم :

فإن كان قلبُه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة الجدِّ ؛ جدَّ في أخْذ الثأر وغاظ عدُوَّه كلَّ الغيظ وأضناه ، كما جاء عن بعض السلف : إن

---

(١) الرقائق ٤٩ - ٦٢ .

(٢) البيان والتبيين جـ٢ / ٢٨٢ للجاحظ - دار الفكر .

المؤمن لينفي شيطانه كما ينفي أحدكم بعيره في سفره[١] .

وقلبُ عالي الهمة : لا يعرف التثاؤب ، ولا الراحـة ، ولا السكونَ ، ولا الترف ، « إن عبادَ الله ليسوا بالمُنعَّمين » .

وكذا كان قلب الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، فقد كان يصوم حتى يعود كالخلال[٢] ، فقيل له : لو أجممت[٣] نفسك ؟ فقال : هيهات ، إنما يسبق من الخيل المضمرة[٤] .

لا ينهض القلبُ إلا حين يدفعه ... عزمُ الرجال إذا ما استيقظت فيهِ
والحَبُّ يخترقُ الغبراءَ مُندفعًا ... إلى السماء إذا هبَّت تُناديهِ
والقيدُ يألفه الأمواتُ ما لبثوا ... أما الحياة فيبليها وتبليهِ

نعم ، أبا القاسم الشابي :

إذا ما طمحت إلى غاية ... ركبتُ المنى ونسيتُ الحذرْ
ولم أتجنَّبْ وعورَ الشِّعاب ... ولا كُبَّةَ اللهب المستعرْ
ومن لا يُحبُّ صعودَ الجبالِ ... يعشْ أبدَ الدهرِ بين الحُفَرْ
وقالت لي الأرضُ لما سألتُ ... يا أم هل تكرهين البشرْ ؟
أباركُ في الناس أهلَ الطموح ... ومَنْ يستلذُّ ركوبَ الخطرْ
وألعنُ من لا يُماشي الزمانَ ... ويقنعُ بالعيشِ عيش الحَجَرْ
هو الكونُ حيٌّ، يُحبُّ الحياةَ ... ويحتقرُ الميْتَ مهما كبُرْ
فلا الأفقُ يحضنُ ميْتَ الطيورِ ... ولا النحلُ يلثمُ ميْتَ الزهرْ

(١) « نفا بعيره هزله ، ونفا ثوبه خلعه ، ونفا سيفه سلَّه » مختار الصحاح ٦٦٥ .
(٢) العود الذي يُخلَّل به الأسنان .
(٣) أي تركتها تستريح . من كتاب صفة الصفوة لابن الجوزي ١/٥٦٠ .
(٤) من كتاب الوقت عمار أو دمار لجاسم محمد بدر المطوع- بتصرف جـ٢/٢٦-٣١.

هذا هو الشعر ، وإلا فلا .

كن كالصقور على الذُّرا تصغي لوسوسة القمـرْ
لا كالغراب يُطارد الـ ـجيفَ الحقيرة في الحُفر

نعم .

إذا أنتَ غمَّت عليك السماءُ وضَلَّتْ حواسُّك عن صُبْحها
فعشْ دودةً في ظلام القبور تغوصُ وتسبحُ في قيحها

يا مُخنَّثَ العزم ، أقلُّ ما في الرقعة البيذق ، فلما نهض تفرزنَ[(١)] .

أخي ، إنما تفاوتَ القومُ بالهِمَم لا بالصُّوَر .

أخي ، الدنيا مضمار سباق ، وقد انعقد الغبار ، وخفي السابق ، والناس في المضمار بين فارس وراجل ، وأصحاب حُمُرٍ معقرة .

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أتحتك فـــرسٌ أم حمارُ[(٢)]

رأى بعض الحكماء برذونًا[(٣)] يُسقى عليه، فقال: لو هملج[(٤)] هذا لرُكب.

طِرْ بجناح الجدِّ مِنْ وكْر الكسل ، تابعًا آثارَ الأحباب تصل .

تَلَفَتُّ حتى لم يبنْ من ديارهم جنابٌ ولا من نارهنَّ وقودُ
وإنَّ التفاتَ القلبِ من بعد طَرْفهِ طوالَ الليـالي نحوهـم لَيَزِيدُ
ولو قال لي الغادون ما أنت مُشْتَهٍ غداة جزعنا الرمل قلتُ أعودُ

(١) الفوائد لابن القيم صـ ٦٠ . البيدق أو البيذق « فارسي مُعرَّب » من العساكر : تفرزن البيدق ، صار فرزانًا من الفرزان ، وهو الملك في لعبة الشطرنج ، والمعنى أن الإنسان إذا جدَّ واجتهد ؛ فاز وساد .

(٢) الفوائد صـ ٦٦ .

(٣) البرذون : دابة دون الخيل وأقدر من الحمير « البغل » .

(٤) هملج : مشى مشية سهلة في سرعة .

أأصبر والوعساء بيني وبينهم وأعلام خبتْ إنني لجليدُ

يا هذا .. الجد جناح النجاة ، والكسل كمزن ، مَنْ كدَّ كدَّ العبيد ؛ تنعَّم تنعُّم الأحرار ، ومَنِ امتطى راحلة الشوق ، لم يشُقَّ عليه بُعْدُ السفر .

على قدْر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدرِ الكرام المكارمُ

يا هذا .. ركائب الرحيل قد أُنيخت بالجناب ولم تتحرَّج ، وناقد البايع قائم على الباب ، ونقدك بهرج ، كيف يلحق السابقين كسلانُ أعرجُ !! استوطأت مهاد الكسل ، وإبر النحل دون العسل .

إخواني ، إلى متى سُكر عن المقصود ؟ ألا صَحْوُ ساعة !

إنْ دنت هِمَّتُك فخفْ من عقوبته ، وإنْ عَلَتْ قليلًا فارغب في معاملته ، وإن تناهتْ فتعلَّقْ بمحبته .

إن قصُرت هِمَّتُك فآثرتْ قطْعَ الشوك صحبك حمارٌ ، وإنْ رضيت سياسة الدواب رافقك بغلٌ ، وإن سددت بعض الثغور أُعطيتَ فرسًا ، فإن كنتَ تُحسن السباق ؛ كان عربيًّا ، فإنْ عزمتَ على الحج ركبتَ جملًا ، وإن شمخت هِمَّتُك إلى المَلِك ، فالفيل مركب الملوك .

رأيتُ عليَّات الأمور منوطة بمستودعات في بطون الأساودِ

ليس كل الخيل للسباق ، ولا كل الطيور تحمل الكتب .

أخي ، من طلب الأنْفَسَ هجر الألذَّ ، مَن اهتمَّ بالجوهر نسي العرض .

في حُبِّكم يهون ما قد ألقى ما يحصل بالنعيم من لا يشقى

ما وصل القوم إلى المنزل إلا بعد طول السرى ، ما نالوا حلاوة الراحة إلا بعد مرارة التعب ، فأين أنت من هذا ؟!

يا من إذا أصبح طلب المعاش بالشهوات ، وإذا أمسى انقلب إلى فراش الغفلات ، أين أنت من أقوام نصبوا الآخرة نُصْبَ أعينهم فنصبوا ، فوفر النصب نصيبهم ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار** ﴾ .

قال بعض السلف : لقيت رجلًا في برية ، فقلت : من أين ؟ فقال : من عند قوم ﴿ **لا تُلهِيهم تجارةٌ ولا بيْعٌ عن ذكر الله** ﴾ ، فقلت : وإلى أين ؟ فقال : إلى قوم ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ .

بنفسي من غداة نأيتُ عنهم تركتُ القلب عندهمُ رهينا
أمالَكَ أيها القلبُ اعتبارٌ بما فعل الهوى بالعاشقينا

ملئوا مراكب القلوب متاعًا لا ينفق إلا على الملك ، فلما هبَّت رياح الدُّجى دفعت المراكب .

إذا الصَّبا سحبت أذيالها سَحَرًا على العقيق وقرّت في ربى إضَمِ
وحرَّشت بين بانِ الجزعِ ظالمةً وشيحةً وجرت في الضالِّ والسَّلم
تنفَّس الوجدُ وارتاح المشوقُ وعا ش بالروح بعد الأخذِ بالكظم

ياسوق الأكل ، أين أرباب الصيام ؟! يا فُرُشَ النوم ، أين حُـرَّاسُ الظلام ؟! درست والله المعالم ، ووقعت الخيام ، قفْ بنا على الأطلال نخصُّها بالسلام .

أين سكانُك لا أين هم أحجازًا سلكوها أم شـآمَا
قد وقفنا بعدهم في ربْعهم فنهبناه استلامًا والتزامَـا
أترى أي طريق سلكوا ؟ أترى أي شِعبٍ أخذوا ؟
حمامة الواديين ما الخبرُ ؟ أعرّسوا بالفرات أم عبروا

إخوتاه .. انتبهوا من رقدات الأغمار ، وانتبهوا لحظات الأعمار ، وقاطعوا الكسل فقد قطع الأعذار ، واسمعوا زواجر الزمن ، فما داجي الدجى وقد بهر النهار ، وخذوا بالحزم فقد شفى تلف من رضي بشفا جُرُفٍ هارٍ .

لله دَرُّ العارفين بزمانهم ، إذْ باعوا ما شـانهم بإصلاح شأنهم ، ما أقلّ ما تعبوا ، وما أيسر ما نصبوا ، وما زالوا حتى نالوا ما طلبوا ، شمَّروا عن سوق الجدِّ في سوق العزائم ، ورأوا مطلوبهم دون غيره ضربة لازم ، وجادوا

مُخلصين فربحوا إذ خسر حاتم ، وأصبحوا في منزل النجاة وأنت نايـم ، متى تسلك طريقهم يا ذا المآثم ؟!أمتى تندب الذنوب نَدْب المآتم ؟! يا رجالًا ما بانت رجوليتهم إلا بالعمائم ، يا إخوان الأمل ، قد بقي القليل ، وتفنى المواسم ، أين أنت من القوم ؟! ما قاعد كقائم .

صحب الله راكبين إلى العز   طريقًا من المخافة وعـــرا
شربوا الموتَ في الكريهة حُلْوا   خوفَ أن يشربوا من الضيم مرّا

شمَّر المتقون عن سوق الجد في سوق المعاملة ، كلما رأوا مراكب الحياة تخطف في بحر العمر ؛ شغلهم هولُ ما هم فيه عن التنزُّه في عجائب البحر ، فما كان إلا قليل حتى قدموا من السفر ، فاعتنقتهم الراحة في طريق التلقِّي ، فدخلوا بلد الوصل ، وقد حازوا ربح الدهرِ .

زمُّوا المطايا فدمعُ العين منطلقٌ   والقلبُ عانٍ وراء الخوف مأسورُ
فغلَّسوا من زرود وجه يومهمُ   وحطّهم لظلال البانِ تهجيرُ
وضمَّنوا الليلَ سلعا إذ رأوه وقد   غنَّتْ على فنقِ سلع العصافير

أملُهم أقصرُ من فتر ، منازلهم أقفرُ من قبر ، نومُهم أعزُّ من الوفاء ، السهر عندهم أحلى من رقدة الفجر ، أخبارهم أرقُّ من نسيم السَّحَر ، آماقهم بالدموع دامية ، والهموم على الجوانح جوانح ، لأنفسهم أنفاسٌ من مثلها يهيج البهيجُ ، روض رياضتهم مطلول الخمايل ، يُحَدِّث ريًا ريِّه عنهم ، فالرايحة رائجة بالخير ، خذْ حديث القوم جملة واقنع بالعنوان ؛ كواكبُ هِمَمِهم في بروج عزائمهم سيَّارة ، ليس فيها زُحَل . ناموا في الدجى على مهاد القلق ، فلمّا جنَّ الليل جنَّ الحذر ، فاستيقظت عينٌ ما تهنَّت بطعم الرقاد .

كفى سائقًا بالشوق بين الأضالعْ   لهيبُ اشتياقٍ ثم فيضُ مدامعْ

كلهم قد بات بليل النابغة ؛ التائب يقول : أنا المُقرُّ على نفسي بالخيانة ! أنا الشاهد عليها بالجناية !

اعفُ عني وأقلْني عثرتي | يا عتادي لمُلمَّاتِ الزمنْ
لا تُعاقبني فقد عاقبني | ندمٌ أقلق روحي في البدنْ

والمتعبِّدُ يبكي على الفتور بكاء الثكلى بين القبور ، ويندب زمان الوصال ، ويتأسَّف على تغير الحال .

قد كان لي مشربٌ يصفو برؤيتكم | فكدَّرته يدُ الأيام حين صفا

والخائف ينادي : ليت شعري ، ما الذي أسقطني من عينك ، أَقلتَ : هذا فراقُ بيني وبينك ؟!

آهٍ لأمراض نفوسٍ قد يئس طبيبُها، ولأصوات مواعظَ قد أخرس مُجيبُها.

الحزمُ مطيَّة النُّجْح ، والطمعُ مركبُ التلف ، والتواني أبو الفقر ، والبطالةُ أُمُّ الخسران ، والتفريطُ أخو الندم ، والكسلُ ابنُ عمِّ الحسرة .

أخي ، ما يحصل بردُ العيش إلا بحرِّ التعب ، ما العزُّ إلا تحت ثوب الكدِّ ، على قدر الاجتهاد تعلو الرُّتب .

هذا جمعٌ جمعتُه لكل مسلم ؛ صادقِ الإيمان ، نقيِّ العقيدة ، ذي همَّة ، ينظر إلى واقع الأمة وسقوطها في المستنقع الآسن .

وقائلة لِمَ غيرّتك الهمومُ | وأمرُك مُمتثَلٌ في الأممْ
فقلتُ ذريني عَلَى غَصَّتي | فإن الهمومَ بقدر الهمَمْ

هذا الوحل ... وهذا الواقع المرير الذي يُبكي قلوب الرجال ، وآهٍ من بكاء الرجال ... فما ظنُّك ببكاء النساء ... وبكاء المقدسات .

أيا فلسطين .. من يُهديك أفئدةً | ومن يُعيدُ لك البيتَ الذي خربا
شرِّدتِ فوق رصيفِ الدمع باحثةً | عن الحنان ولكن ما وجدتِ أبا
تلفَّتــي تجدينــا في مباذلنــا | من يعبدُ الجنسَ أو من يعبدُ الذهبا
يا شامُ إن جراحي لا ضفافَ لها | فمسِّحي عن جبيني الحزنَ والتَّعبا
أتيتُ من رحم الأحزانِ يا وطني | أقبِّل الأرضَ والأمجادَ والشُّهُبَا

أنــا قبيلــةُ آلامٍ بكاملهــــا ... ومن دموعِي سقيتُ البحرَ والسُّحُبَا
ياشامُ أين هما عينا معاوية ... وأين من زاحموا بالمنكبِ الشُّهُبَا
وقبرَ خالد في حمصٍ نُلامسُهُ ... فيرجفُ القبرُ من زوَّاره غضبا
يارُبَّ حيٍّ ترابُ القبر مسكنُهُ ... ورُبَّ ميْتٍ على أقدامِهِ انتصبا
يا ابن الوليد ألا سيفٌ نؤجِّرُهُ ... فكلُّ أسيافِنا قد أصبحت خشبا
أدمت سياطُ حزيران ظهورَهمُ ... فأدمنوها وباسوا كفَّ مَنْ ضربا
وطالعوا كتب التاريخ واقتنعوا ... متى البنادقُ كانت تسكنُ الكُتُبا
يا مَنْ يُعاتب مذبوحًا على دمه ... ونزف شريانه ما أسهل العتبا
من جرّب الكيّ لا ينسى مواجعَه ... ومن رأى السُّمَّ لا يسقى كمن شربا
حبل الفجيعة ملتفٌّ على عنقي ... من ذا يُعاتب مشنوقًا إذا اضطربا

والأحزان والمصائب تشحذ الهمم ، وتصنع الرجال .

يا أمتي عارٌ تـردَّد أننـا ... أبناءُ مَنْ سادوا الأنامَ وكانوا
والقدسُ غارقةٌ يُمزِّقها الأسى ... ويُعيد رجْعَ أنِينها الجولان
حتّامَ ينخرُ في عزائمنا الهوى ... وتُذيبنا الآهاتُ والأحـزانُ

نعم ... إن لم تحفزْنا المصائب ... وتُغْلِ هممَنا الآلامُ والأحزانُ ... فما الذي يُعلينا ... ياله من دين لو أن له رجالًا .

ورحتُ من سفرٍ مضنٍ إلى سفرٍ ... أضنى لأنّ طريق الراحةِ التعبُ
لكن أنا راحلٌ في غير ما سفرٍ ... رحلي دمي وطريقي الجمرُ والحطبُ
إذا امتطيتُ ركابًا للنوى فأنا ... في داخلي أمتطي ناري وأغتربُ
قبري ومأساة ميلادي على كتفي ... وحوليَ العدمُ المنفوخُ والصخبُ
لكن موت المجيد الفذِّ يبدؤهُ ... ولادة من صباها تُرضَعُ الحِقَبُ
حبيبٌ ما زال في عينيك أسئلةٌ ... تبدو وتنسى حكاياها فتنتـقبُ
ولا تزال بحلقي ألفُ مُبكيـةٍ ... من رهبةِ البوح تستحي وتضطربُ

سحائبُ الغزو تشوينا وتحجُبُنا ... يومًا ستحبَل من إرعادنا السُّحُبُ
ألا ترى يا أبا تمام بارقنــا ... إن السماء تُرجَّى حين تحتجبُ[1]

فإلى الرجـال وللرجـال كتبتُ ، وجمعتُ جمعي للرجوع بالأمة إلى إسلامها ... لزيادة بذل ، وترقيق قلب القلب .

أنت فذٌّ وكلامي شُعَـلٌ ... غُلٌّ شدوي مُضرِمٌ فيك حريقا
ليس في قلبي إلا أن أرى ... قطرةً فيك غدت بحرًا عميقًا
لا عَرَى الروحَ هدوءٌ ولتكن ... بحياة الكدِّ والكدح خليقا

لتكن كلّك للإسلام .. دينك لحمك .. دينك عِرضك .. دينك دمك.

سِرْ في الزمان وحدِّثْ أننا نفرٌ ... شُمُّ العرانين يومَ الهولِ نفتقدُ
عُدنا إلى الله في أعماقنا قبسٌ ... من السموات لا يغتالُه الأبدُ
جئنا نُعيدُ إلى الإسلام عزَّتَهُ ... وفوق شُمِّ الرواسي تُنصبُ العُمُدُ

أخي ، إن المستقبل كل المستقبل للإسلام .

قال ﷺ : « إن الله زوى[2] لي الأرض ، فرأيتُ مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ مُلْكُها ما زُوي لي منها »[3] .

وقال ﷺ : « ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهارُ ، ولا يترك الله بيتَ مدرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله هذا الدين بعزِّ عزيز ، أو بِذُلِّ ذليل ؛ عِزًّا يُعِزُّ الله به الإسلام ، وذُلًّا يُذلُّ به الكفر »[4] .

وعن أبي قبيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسُئل:أيّ

---

(١) البَرَدُّوني : من قصيدة (أبو تمام وعروبة اليوم) .
(٢) أي جمع وضمَّ .
(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد ، من حديث ثوبان .
(٤) صحيح : رواه ابن حبان وأبو عروبة في « المنتقى من الطبقات » وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم (٣) .

المدينتين تُفتح أولًا ؛ القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حِلَقٌ ، قال : فأخرج منه كتابًا ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سُئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولًا ؛ أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مدينة هرقل تُفتح أوَّلًا » ؛ يعني قسطنطينية[١].

لا تهيئ كفني يا عاذلي فأنا لي مع الفجر مواثيق وعهدُ

وقال ﷺ : « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون مُلكًا عاضًّا ، فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون مُلكًا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت »[٢] .

أحلامُنا لم نزل في الطين نغرسُها **إنْ يرحلِ العمرُ ما للحلمِ ترحيلُ**
لن يقتلوا الشمس مهما غاب موعدُها إنْ مزَّقوا الشمس لن تخبو القناديلُ
ما زلت في العين نورًا لا يُفارقُنا فالكلُّ يمضي ويبقى وحي جبريلُ

---

(١) صحيح : رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة في المصنف وأبو عمرو الداني في « السنن الواردة في الفتن » وعبد الغني المقدسي في كتاب « العلم »، وقال : حديث حسن الإسناد ، والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم (٤) .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، والطيالسي ، والعراقي في « محجة القرب إلى محبة العرب » وقال : صحيح . ورواه البزار والطبراني ببعضه في الأوسط وقال الهيثمي : ورجاله ثقات . وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٥) .

فمتى ستُنبتُ ياغدي بين الثرى زهرًا وعُشبا
وبأي جزءٍ في سماء الكون سوف تصيرُ سُحبا
وبأي أرضٍ سوف تشرق ياغدي فجرًا وحبًّا
وبأي نهرٍ في بلادِ الله تسري بالرحيق وتملأُ الأرجاء خصْبا
رغم انشطارِ مسارنا في كل نبضٍ في الجوانح لم أزل أخفيك قلبًا
رغم ابتعاد مكاننا مازلت في العين الحزينة ياغدي تزدادُ قُرْبى

هذا في الدنيا ... فما ظنُّك بآمال القرْب من الله والخلود في جنته .

وأخيرًا :

ما ارتفع صوت الحادي يومًا ما لرفقة أولي صَمَم ، ولا ارتفع الفلك الأعلى لغير أهل الشموخ .

طِرْ بهمتك :

أهمّ بشيء والليالي كأنها تطاردُني عن كونها وأُطاردُ
فريدٌ عن الخِلّان في كل بلدةٍ إذا عظُم المطلوبُ قلَّ المساعدُ

اللهم ما أعطيتنا مما نُحبُّ فاجعلْه قوةً لنا فيما تُحبُّ ، اللهم وما زويت عنا مما نُحبُّ فاجعله فراغًا لنا فيما تُحبُّ .

إلهي ، أدِلْنا من نفوسنا التي هي أقرب أعدائنا ، وأعظمهم نكايةً فينا ، تُلاعب خوادع آمالنا ببضائع أعمارنا ، فصرنا مفاليس ، أغارت علينا خيولُ الهوى ، فاستأسرنا بأسرنا ، فيا ملاذ الخائفين ، ياملاذ العارفين خذْ بيد مَنْ قد زلَّت قدمُ فطنتِهِ ، في مزْلَقِ فتنتِهِ ، أقمْ من قعد به سوءُ عمله ، ويامالك الملك ، أنقذْ حبيسنا ، وخلِّصْ أسيرنا ، وسَيِّرْ أوبتنا من بلاد غربتنا ، نسألك لذة العيش بعد الموت ، وحُسْنَ النظر إلى وجهك الكريم ، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين .